قبيلة الخنافس

محسن خضر

لماذا لايرسم البرجل إلا الدوائر، وليست لدائرتكَ نقطةُ ارتكازٍ محددةٌ يا ابن أمك؟

ولكني ابنك، وأنت أبي. ويوم قطع الترامُ ساقي حَكَتْ أختي كيف هُرعتَ إلى المستشفى وكنتَ تسبني، بينما كنتُ في غيبوبة الصدمة.

ترتعش حواجبُهُ الكثيفة تحت عمامته المتسخة، وتحمرّ عيناه صارخاً، بنبرته الساخرة الشامتة:

ـ تكمل تعليمك! هل رأيتَ طبيباً أو مهندساً أعرج؟

أنسحبُ إلى عالمي تحوطني أمي بحنانها، وتخطب ودِّي بأمومتها: نسمةِ الصيف في حياتنا الجافة، التي تتحدد بسوق الخضار ومشيئةِ أبي وضوضاءِ شارع روض الفرج.

ـ ستنزل السوق معي.

أكره رائحة الخضار، فما بالك بتجارته؟ أتهيب القلعة الحمراء الوردية القاتمة لسوق روض الفرج. يبتلعني في صخبه وازدحامه، فإخالني ورقَ كرنبٍ تدوسه الأقدام أو أعوادَ كرفسٍ ذابلةً تشمها الكلابُ وتعافها.

ينسحب ذو القدم الواحدة إلى عالمه. يمتد بطول الطرف الحديدي المدبَّب في نهاية ساقه اليمنى المقطوعة.

ينشغل برسم طائرات وطيور وبجع على خشب العكّاز، كلما حلّق بين سحب خفية، وذات أجنحةٍ طويلة مشرعة. يرسم فيها قمماً وهاماتٍ لأشجارٍ سامقةٍ تعلوها الطيور.

تنسحب شقيقته الكبرى إلى عالمها، تنضح أحياناً بنوبة تحنانٍ مشرقة، وتزدريه أحياناً أطول فتنساه.

غدا ستحلّق كلُّ الطيور بعيداً عن سماء العكّاز إلى السماء الحقيقية، ستزمجر محركاتُ طائراتي الصامتة لتحملك إلى جزر سحرية وبحار ملونة.

تزداد أمي حنواً، ويزداد أبي قسوةً وغلظة. تشغله تجارته عنّا بالنهار، وتشغله سهراتُ الكيف والأنس بالليل.

لماذا اختارني الترام الأصفر من بين كل أطفالِ «روضِ الفرج» ليَلْتَهم ساقي؟

ـ لو أفلحتَ، فقد تصبح نصفَ معلمِ خضارٍ يملأ العين يا أعرج.

منذ أن سُجِنَ أبوه في غارةٍ للحكومة على المقهى الليلي تحرَّر عالمه. تتفجر أمه النحيلة رجولةً وحماسةً. من أين لهذه المنكسرة بكل تلك القوة؟ قاومتْ بضعفها رغبةَ المعلم الحاسمة في تركه المدرسةَ، إلا أنه توقف عند الشهادة الابتدائية لجبروت الرجل.

ـ أصبحتَ رجلنا، يا بني.

تصحبني أمي في زيارتها الشهرية إلى السجن. يعذبني الصعودُ والهبوط في سيارات الأجرة والأتوبيس ثم سيارات الأجرة الجماعية. ارحميني يا أم. أقفزُ كالجرادة في خطواتي محاولاً اللحاق بخطواتها المهرولة.

أبوك يا بني في شدة، وستزول.

أهملني في زيارات الشهور الأولى. «إزَّيك؟». لا يخاطبني بأكثر منها. ولكنه بدأ في التحول تجاهي كأنه يكتشفني من جديد. يكلفني بأن أنقل أخبار تجارته التي يتولاها صبيُّهُ. كاد يصيح: «آه لو لم تكن أعرج»، ولكنه ابتلع الكلمة الأخيرة.

تعززني أمي: «أصبح رجلَنا منذ ذهابك».

ـ والبنت؟

ـ تقبِّل يدكَ.

ـ افتحْ عينيك يا ولد. هي شَرَفنا.

ينساه بقية الشهر. ويحاول التمارض في موعد الزيارة الشهري، ولكنّ أمه تنفخ في روحه فيشعر بالمسؤولية: «أنت رجلنا».

ـ وصِّلْ أختك إلى الدرس.

نقطع شارع «مسرّه» الطويل حتى بداية مصبِّهِ في شارع شبرا.

تحرص أمي أن ترتدي شقيقتي ثوبَ المدرسة. تتسع الخطوات وتشرد حيناً، فأتحول إلى ضفدعة بعكازين. أوصل المسافة المتأرجحة بخيالي، وأجاهد في إخفاء حبّات عرقي وفحيح أنفاسي.

ـ انتظرني، لن أتأخر. هنا منزل زميلتي.

تأمره البنت في رفق. تتركه عند البناية الضخمة التي تحتل رأس الشارع وتطلّ على شارع شبرا بمقدمتها العريضة، وتختفي داخل بابها الضخم. يستند ذو القدم الواحدة إلى عربة صدئة مركونة في أول الشارع الجانبي كاشفاً مدخل البناية الضخم.

يبدو الوقت ثقيلاً. وتمطّ حصةُ الدرس الخصوصي نفسَها إلى ساعتين أو أكثر. بدت المهمةُ ثقيلةً في أيامها الأولى، إلا أنه باكتشاف موطن قبيلة الخنافس بدأ الوقتُ ممتعاً والمكانُ مسلياً.

كان يتسلى بالرسم على عكّازه الخشبي، يرسم وجوهاً وطيوراً وطائراتٍ وجبالاً وسحباً، ثم يلمح مدخل البناية، ويعود إلى مراقبة موطن الخنافس.

بدّدَ ظهورُ الخنافس الانتظارَ المملَّ، وهي تتدافع من الشق الذي يفصل حَجَرَي الرصيف، متجهةً إلى ثقبٍ تغطيه قطعةُ أسفلتٍ منتَزَعةٌ من الطريق وملقاةٌ جانباً.

يتأمل الكائنَ الغريب. يتهيَّب سواده. يقارنه بالسَّحالي والفئرانِ والأَرَض فَتَكْسبُ الخنافسُ مقارنةَ اللون.

تحولتِ المراقبةُ إلى انقضاضٍ يرشق إبرة في مؤخرة ساقه الخشبية.

ويسدِّد السنَّ المدبَّبَ إلى المنطقة الفاصلة بين الرقبة وصدفة الظهر. تترنح الخنفساءُ وكأنها بوغتتْ بالهجوم. ينتزع الإبرةَ ليمدَّها مرةً ومرتين وثلاثاً، حتى تُشَلّ الخنفساءُ وتستسلم. يراقب دمها الأسود. تلهث أنفاسُهُ، وتملأه النشوة، ويبدو مقاتلاً مغواراً وسيداً مهيباً، وقد دان الميدانُ لسيطرته.

يستدير إلى موكب الخنافس الذي بدأ يتقدم في ثبات. ويختار فريسةً أخرى، يناورها بساقه ويقلبها على ظهرها. ويحاول أن يرعبها قبل أن يقوم بهجومه الضاري، ولا يهدأ قبل أن يغطِّيها الدمُ الأسود.

يُدْهِشه أنّ قبيلة الخنافس لا تنقرض بعد كل هذا العدد من القتلى. ويمضي في طابوره المعتاد متوجهاً من الشق إلى الثقب، في خطوات ثابتة، رغم ضحاياه وقتلاه.

في هذه الأثناء تكون البنت التي دلفتْ من مدخل البناية قد استقلّتِ المصعدَ، وتحرص أن تكون بمفردها داخل المصعد.

تُوقف المصعدَ بين طابقين فتنزع ثوبها المدرسيَّ، وتُخرج فستاناً ملوناً من حقيبتها فترتديه، وتدسّ ثوبها المدرسيَّ في الحقيبة. تهبط بالمصعد ثانية وتتجه إلى باب البناية الخلفي.

تسير وتستدير وتنحرف يميناً ويساراً، قبل أن تبتلعها البنايةُ البنفسجيةُ الواجهةِ المتوسطةُ العمر في الحي المجاور.

تصعد على الدرج إلى الطابق الثاني. تضغط جرساً. يفتح البابَ المهندسُ الذي يقطن وحيداً. تنفذ رائحةُ عطره إلى أنفها قبل أن تستسلم إلى ذراعيه ويسحبها إلى الفراش. عندما تعود إلى مصعد البناية الضخمة تبدِّل ملابسها في اتجاه عكسي. وتخرج من مدخل البناية الضخمة في خطى واثقة.

ـ انتهيتُ. هيّا بنا.

يفيق الولد من تأملاته. ينظر إليها بحنان، ويلتقط إبرته من طرف ساقه الخشبية المدببة ويمسحها بقطنة مبللة ثم يخفيها في جيبه ويتوكأ على عكّازه محاولاً اللحاقَ بها.

ـ درس كيمياء.

ـ لا.. رياضيات.

يصلان أخيراً المنزلَ. تلتقط أمهما الناحلةُ أنفاسها وتسبل عينيها علامةَ الاطمئنان لوصولهما.

تختفي شقيقته في الحمام مستسلمةً للرذاذ المتطاير من الدشّ، وتحرص على أن يغطي الماء كلَّ بوصةٍ في جسمها. وفي هذا الوقت يكون الولدُ قد التقط قلماً، وشَطَبَ رقماً مكتوباً على الحائط، ليكتب رقماً جديداً بعد أن أضاف إليه عددَ الخنافس التي قتلها اليوم.

القاهرة

أنا وحي الأمجاد ومسعودة

سهيلة داوود سلمان

كدوّامة تدور وتدور، هذا الدويّ في الرأس لم يعد محتملاً، يخترق أذني، ينتهك ليلي، ويقتحم نهاري. أكاد أفقد صوابي، وأنا أسأل شريك حياتي الذي شاطرني العيش في هذا البيت الذي تعاونّا على إنشائه في هذا الحي الحديث الذي يطلقون عليه «حيّ الأمجاد».. أسأله إنْ كان يسمع ما أسمع أو يشعر بالذي أشعر به، فيقلب لي شفتيه غيرَ عابئ بعذابي، ويهزّ رأسه وفي نظرته شيء من الشفقة والشك وهو ينصحني قائلاً: «شوفي طبيب». فلا أملك إلا السكوت.

أعرف أنّ شريك حياتي ضعيف السمع قليلاً، أي أنّ الأصوات الواطئة والمكتومة من الدرجة الأولى والثانية لا تصله على نحو جيد. ولم يكن ذلك بسبب خريف العمر الذي أدركه على غفلة من الزمن، بل بسبب عطب أصابَ إحدى أذنيه قبل ما يقارب العقدين أثناء انخراطه التطوّعي فيما سُمي آنذاك بالجيش الشعبي.

لم نكن يومذاك في حالة حرب وليس ثمة ما يشير إلى أنّ الوطن قد يتعرض لخطر. كان الرخاء يعمّ البلاد من أقصاها إلى أقصاها. إلا أنّ الشعور الوطني العارم الذي زَرَعَتْه عقودُ الاستعمار في النفوس كان لا يزال خصباً بما يكفي ليدفع الشباب بل والشيوخَ إلى التّحسُّب خوفاً من وقوع خطر ما. كان قد تجاوز سنّ الشباب، في الخامسة والأربعين، من